الثريا بنت على

شغل صاحب الاغانى بتحقيق نسب هذه الثريا ، فليرجع اليه من شاء ، ولنمض نحن فى الحديث عن فتنتها لعمر ابن ابى ربيعة ، وذكر ما أوحت اليه من الشعر الجيد البليغ

كانت الثريا أعجوبة من أعاجيب الجمال . وقد وصفها معاصروها بمثل ماوصفوا به عائشة بنت طلحة فذكروا أنها كانت خصبة الجسم ، وثيرة الردف . قال بعض المكيين : كانت الثريا تصب عليها جرة ماء وهى قائمة فلا يصيب ظاهر فخذيها منه شىء من عظم عجيزتها . وقال مَسْلَمة ابن ابراهيم : قلت لايوب بن مَسْلَمة : أكانت الثريا كما يصف عمر ابن أبى ربيعة ؟ فقال : وفوق الصفة ! كانت والله كما قال عبد الله ابن قيس :

حبّذا الحجُّ والثريا ومن بالـ ... ـخَيْف من أجلها ومُلقَى الرحالِ (١)

ياسليمانُ إن تلاقِ الثريا ... تلق عيش الخلود قبل الهلالِ

درةٌ من عَقائل البحر بِكرٌ ... لم تنلها مَثاقِب اللآلِ (٢)

(١) الخيف ، ماانحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء ومنه سمى مسجد الخيف من منى كما قال ياقوت (٢) اللآل : ثاقب اللؤلؤ

وكانت تصيف بالطائف ، وكان عمر يغدو عليها كل غداة إذا كانت بالطائف على فرسه ، فيسائل الركبان الذين يحملون الفاكهة من الطائف عن الأخبار قِبَلَهم ، فلقى يوماً بعضهم فسأله عن أخبارهم ، فقال : مااستطرفنا خبرا ، الا انى سمعت عند رحيلنا صوتا وصياحا عاليا على امرأة من قريش اسمها اسم نجم السماء ، وقد ذهب عنى اسمه . فقال عمر : الثريا ؟ قال : نعم وقد بلغ عمر قبل ذلك انها عليلة ، فوجه فرسه على وجهه الى الطائف يركضه مِلْءَ فُروجه وسلك طريق كَدَاء ، وهى أخشن الطرق وأقربها ، حتى انتهى الى الثريا وقد توقعته وهى تتشوف له فوجدها سليمة ومعها أختاها رُضيًّا وأم عثمان . فأخبرها الخبر فضحكت وقالت : انا والله امرتهم لأختبر مالى عندك . فقال عمر فى ذلك :

تشكَّى الكُمَيتُ الجرى لماجَهَدتهُ
وبيَّن لويَسْطيع أن يتكلما (١)
فقلت له إن ألقَ للعين قُرةً
فهان علىَّ أن تكلَّ وتسأما
لِذلك أُدنى دون خيلى رِباطَهُ وأُوصى به أن لايُهان ويكرما

(١) الكميت : الجواد الذى مزجت حمرته بسواد

عدِمت اذاً وَفْرى وفارقت مهجتى لئن لم أَقِل قَرْنا إنِ الله سلّما (١)
فما راعها الاّ الأغرُّ كأنه عُقابٌ هَوَت مُنقضّةً قدرأت دما
فقلت لهم كيف الثريا بهِلْتُمُ فقالوا ستدرى مامكرنا وتعلما
هنالك فانزلْ فاسترح فاذا بدتْ ثُريالك فى أترابها الحور كالدُّمى
يُردن احتياز السِّر منك فلا تبُحْ بما لم تكن عنه لدينا مُجَمْجِماً (٢)

وكانت الثريا تغار على عمر غيرة شديدة ، وتكاد تجن حين تقف على بعض أخباره مع ظِراف النساء . بلّغتها أم نوفل انه قال فى رملة بنت عبد الله

أَصبح القلب فى الحبال رهينا مُقْصَداً يوم فارق الظاعنينا

فقالت : انه لوَقاحٌ صَنَعٌ بلسانه (٣) ولئن سَلِمت له لأردنّ من شأوه (٤) ولأثنينّ من عنانه ، ولأعرفنه نفسه : فلما بلغت الى قوله :

قلتُ من أنتم فصدت وقالت أمُبِدٌّ سؤالُك العالمينا

قالت : انه لسأّل مُلِحّ ، قبحاً له ! ولقد أجابته ان وفت . فلما بلغت الى قوله :

(١) لئن لم أقل: من القيلولة بمعنى الاقامة — وقرن : جبل بعرفات يقال له قرن المنازل ، وهو ميقات أهل اليمن والطائف . قال ابن أبى ربيعة من كلمة أخرى

ألم تسأل الربع ان ينطقا بقرن المنازل قد أخلقا

(٢) الجمجمة: عدم الابانة (٣) الوقاح قليل الحياء. والصنع : الحاذق والمؤنث صناع يقال رجل صنع اليدين وامرأة صناع اليدين (٤) الشأو . الزمام

نحن من ساكنى العراق وكنا قبلهُ قاطنين مكة حينا

قالت : غمزته الجَهْمة [1] فلما بلغت الى قوله :

قد صدقناك اذ سألت فمن انـــت عسى ان يجر شأنٌ شئونا

قالت : رمته الورْهاء بآخر ماعندها فى مقام واحد [2]

وروى ان الثريا لما سمعت قول ابن أبى ربيعة فى رملة :

وجلا بُردُها وقد حسرتهُ نور بدرٍ يضىء للناظرينا

قالت : أُفٍّ له ما أكذبه ! أوَ ترتفع حسناء بصفته لها بعد رملة [3] ثم هجرته

ظرف ابن أبى عتيق

لما هجرت الثريا عمر قال فيها :

قال لى صاحبى ليعلم مابى أتحب القتول اخت الربابِ

قلت وجدى بها كوجدك بالعذ ب اذا ما مُنِعت برد الشراب

من رسولى الى الثريا فانى ضِقتُ ذرعا بهجرها والكتابِ

(١) غمزته : أشارت اليه . والجهمة : العاجزة الضعيفة (٢) الورهاء : الحمقاء (٣) كانت رملة حسنة الجسم قبيحة الوجه عظيمة الأنف وكانت حين اسنت عند عمر بن عبيد الله تجتنبه فى أيام أقرائها ثم تغتسل لتريه أنها تحيض . فقال فى ذلك بعض الشعراء

جعل الله كل قطرة حيض قطرت منك فى حماليق عينى

غَصَبَتْنى مجّاجة المسك عقلى فسلوها ماذا أحلّ اغتصابى
أبرزوها مثل المهاة تهادى بين خمسٍ كواعبٍ أتراب
وهى مكنونةٌ تحيَّر منها فى أديم الخدين ماء الشباب
ثم قالوا تحبها ؟ قلت بهراً عدد الرمل والحصا والتراب

قال بلال مولى ابن أبى عتيق : أُنشد ابن أبى عتيق قول عمر :

من رسولى الى الثريا فانى ضِقت ذرعاً بهجرها والكتاب

فقال إياىَ أراد ، وبى نَوَّه ! لاجَرَم ، والله لا أذوق أُكْلاً حتى أشخص فأصلح بينهما ، ونهض ونهضت معه ، فجاء الى قوم من بنى الدِّيل بن بكر لم تكن تفارقهم نجائبُ لهم فُرْهٌ يُكرونها ، فاكترى منهم راحلتين وأغلى لهم ، فقلت له : استوضِعْهم ، أو دعنى أُماكسهم فقد اشتطُّوا عليك . فقال : ويحك ! أما علمت ان المكاس ليس من أخلاق الكرام ! ثم ركب احداها وركبت الاخرى فسار سيراً شديداً . فقلت : أَبق على نفسك ! فان ماتريد ليس يفوتك . فقال : ويحك !

أُبادر حبل الود أن يتقضّبا [1]

وما حلاوة الدنيا ان تمَّ الصَّدع بين عمر والثريا ! فقدمنا مكة ليلاً غير محرمين ، فدقَّ على عمر بابَه فخرج اليه وسلم عليه ولم ينزل عن راحلته .

(١) يتقضب : يتقطع

فقال له : اركب أُصلح بينك وبين الثريا فأنا رسولك الذى سألت عنه. فركب معنا وقدمنا الطائف ، وقد كان عمر أرضى أم نوفل فكانت تطالب له الحيل لاصلاحها فلا يمكنها . فقال ابن أبى عتيق للثريا : هذا عمر قد جشّمنى السفر من المدينة اليك ، فجئتك به معترفاً لك بذنب لم يجنه ، معتذراً اليك من إساءته اليك . فدعينى من التعداد والترداد ، فانه من الشعراء الذين يقولون مالا يفعلون ، فصالحته أحسن صلح وأتمه وأجمله ، وكرَرْنا إلى مكة فلم ينزلها ابن أبى عتيق حتى رحل . وزاد عمر فى أبياته .

أزهقت أم نوفل إذ دعتْها ... مهجتى ، ما لقاتلى من متاب[1]

حين قالت لها أجيبى فقالت ... من دعانى ؟ قالت أبو الخطاب[2]

فاستجابت عند الدعاء كما لبّى ... رجالٌ يرجون حسن الثواب[3]

* * *

(١) أزهقت مهجتى : أذهبتها : يريد أن أم نوفل ذهبت بعقله حين سعت فى عطف الثريا فلم تفلح (٢) كنت ألاحظ أن الكتاب المتقدمين لايهتمون بوضع الفاء للربط بين عبارات القول . وكنت أرى فى ذلك تخفيفاً والان ألاحظ أن الشعراء أنفسهم كانوا يسلكون هذا المسلك كما نرى في شعر عمر مما يدل على أن هذا من الأساليب العربية المقبولة

(٣) يريد أنها كررت فى التلبية كما يفعل المحرم فقالت : لبيك لبيك !

الثريا وسهيل

كان مسعدة بن عمرو أخرج عمر بن أبي ربيعة إلى اليمن فى أمر عرض له ، وتزوجت الثريا وهو غائب ، تزوجها سهيل بن عبد العزيز فبلغه تزويجها وخروجها إلى مصر فقال :

أيها المنكحُ الثريا سُهيلاً عمرَكَ اللهُ كيف يلتقيان ؟
هى شامية إذا ما استقلتْ وسهيل إذا استقلّ يمانى [1]

ثم حمله الشوق على أن سار إلى المدينة فكتب إليها :

كتبت إليك من بلدى كتاب مولّهٍ كمَدِ
كئيب واكف العينـ ـين بالحسرات منفرد
يؤرّقه لهيب الشو ق بين النّحر والكبد
فيمسك قلبه بيدٍ ويمسح عينه بيد

فلما وصلتها هذه الأبيات وقرأتها بكت بكاءً شديداً ، ثم تمثلت :

بنفسىَ من لايستقلُّ بنفسه ومن هو إن لم يحفظ الله ضائعُ

(١) استقل : ارتفع وفي المقابلة بين الثريا وسهيل توربة لطيفة ، لبعد مابين هذين النجمين وبعد مابين الثريا وكانت معروفة بالحسن وبين سهيل وكان مشهورا بالقبح . وكذلك لطف عجب الشاعر إذ يقول : عمرك الله كيف يلتقيان

وروى صاحب الاغانى من طريق آخر[١] أن سهيل بن عبد العزيز لما تزوج الثريا نقلها إلى الشام ، وأن عمر بن أبى ربيعة لما بلغه الخبر أتى المنزل الذى كانت الثريا تنزله فوجدها قد رحلت منه يومئذ ، فخرج فى أثرها فلحقها على مرحلتين ، وكانت قبل ذلك مُهاجرته لأمر أنكرته عليه فلما أدركهم نزل عن فرسه ودفعه إلى غلامه ومشى متنكراً حتى مر بالخيمة ، فعرفته الثريا وأثبتت حركته ومشيته ، فقالت لحاضنتها[٢] كليه . فسلمت عليه وسألته عن حاله وعاتبته على ما بلغ الثريا عنه ، فاعتذر وبكى ، فبكت الثريا . فقالت : ليس هذا وقت العتاب مع وشك الرحيل . فحادثها إلى طلوع الفجر ، ثم ودعها وبكيا طويلا وقام فركب فرسه ، ووقف ينظر اليهم وهم يرحلون ، ثم أتبعهم بصره حتى غابوا ، وأنشأ يقول :

يا صاحبىَّ قِفا نستخبر الطَّلَلا ... عن حال من حلّه بالأمس ما فعلا

فقال لى الربع لما أن وقفت به ... إن الخليط أجدَّ البين فاحتملا[٣]

وخادعتك النوى حتى رأيتهمُ

فى الفجر يحْتثُّ حادى عيسهم زَجِلا[٤]

(١) ص ٢٤٤ ج ١ (٢) الحاضنة : المربية وربما قالوا الداية ، لولا أن هذه الاخيرة يراد بها المرضع التى قد تظل مع الطفلة تربيها حتى تشب (٣) أجد : اعتزم ـ احتمل : رحل

(٤) يحتث : يسوق ـ والزجل رفع الصوت فى حداء الابل

لما وقفنا نحيّيهم وقد صرختْ

هواتف البين واستولت بهم أُصلا[1]

صدت بعاداً وقالت للتي معها ... بالله لوميه فى بعض الذى فعلا

وحدثيه بما حُدِّثت واستمعى ... ما ذا يقول ولا تعيَىْ به جدلا

حتى يرى أن ما قال الوشاة له ... فينا لديه إلينا كلُّه نُقلا

وعرِّفيه به كالهزل واحتفظى ... في غير معتبة أن تُغضبى الرجلا

فان عهدى به والله يحفظهُ ... وإن أتى الذنب ممن يكره العذَلا

لو عندنا اغتيب أو نِيلت نقيصتُه

ما آبَ مغتابه من عندنا جَذِلا

قلت اسمعى فلقد أبلغت فى لَطفٍ

وليس يخفى على ذى اللب من هزلا

هذا أرادت به بخلا لأعذرها ... وقد أرى أنها لن تعدم العللا

ما سُمِّى القلب إلا من تقلُّبه ... ولا الفؤاد فؤاداً غير أن عقلا

أما الحديث الذى قالت أُتيت به ... فما غبأتُ به إذ جاءنى حِوَلا[2]

(١) الأصل : العشى تقول: لقيته أصلا ،وأصيلا وأصيلا لاوأصيلا نا

(٢) الحول: الحيلة . والمعنى أنه لم يهتم بما نقل من الحديث اذ كان يعلم أنه ليس الا حيلة لافساد مابينهما من الحب

ما إن أطعت بها بالغيب قد علمتْ

مقالةَ الكاشح الواشى إذا محلا [1]

إني لأرجعه فيها بسخطته وقد يرى أنه قد غرّنى زللا [2]

وهى قصيدة طويلة اقتطفنا بعضها فى المحاضرة الاولى عند الكلام عن إمعانه فى التّيه وإغرابه فى الصّلف

* * *

الثريا عند الوليد بن عبد الملك

لما مات سهيل عن الثريا، أو طلقها، خرجت إلى الوليد بن عبد الملك وهو خليفة بدمشق فى دين عليها، فبينما هى عند أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان إذ دخل عليها الوليد فقال: من هذه؟ فقالت "ثريا، جاءتنى تطلب اليك فى قضاء دين عليها وحوائج لها. فأقبل بها الوليد فقال: أتروين من شعر عمر بن أبى ربيعة شيئاً؟ قالت: نعم! أما إنه يرحمه الله كان عفيفاً عفيف الشعر، أروى قوله:

ما على الرسم بالبُلَيّين لو بيّـ ـن رَجع السلام أو لو أجابا [3]

(١) محل: سعى بالسوء (٢) غره زللا: أوقعه فى الزلل (٣) البليان: مثنى بلى بالضم ثم الفتح وياء مشدة: وهو تل قصير أسفل حاذة بينها وبين ذات عرق كما ذكر ياقوت. وفيه يقول الخطيم العكلى:

فالى قصر ذى العشيرة فالصا ئف أمسي من الأنيس يبابا[1]
موحشاً بعد ما أراه أنيسا من أناس يبنون فيه القبابا
أصبح الربع قد تغير منهم وأجالت به الرياح الترابا
فتعفّى من الرباب فأمسى القـــلب فى إثرها عميداً مصابا
وبما قد أرى به حىَّ صدقٍ ظاهرى العيش نعمةً وشبابًا
وحِساناً جواريًا خفراتٍ حافظات عند الهوى الأحسابا
لا يُكثِّرن فى الحديث ولا يتْ بَعْن ينعقْن بالبهام الظِّرابا[2]
طيِّبات الاردان والنشر عِيناً كمها الرمل بُدَّناً أترابا

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بأعلى بلى ذى السلام وذى السدر
وهل أهبطن روض القطاغير خائف وهل أصبحن الدهر وسط بنى صخر

وابن أبى ربيعة يورده متى كما في هذه القصيدة وأحياناً يورده مفردا كقوله في مطلع قصيدة أخرى :

سائلا الربع بالبلى وقولا هجت شوقا لى الغداة طويلا

(١) ذو العشيرة : حصن صغير بين ينبع وذى المروة . والصائف : موضع حجازى قريب من ذى طوى واليباب : الخراب (٢) النعيق : صياح الراعى بالغنم وزجرها البهام : جمع بهمة وهي أولاد الضأن والمعز والبقر ـ والظراب : صغار الجبال واحدها ظرب ككتف . ومن أسجاع الاساس : الكرام طراب ، وأنتم ظراب ـ ويحسن أن يلاحظ القارىء أن الظراب في البيت منصوبة بالفعل : يتبعن . والبيت فى جملته وصف لاولئك الحسان بالنعمة والترف

إذ فؤادى يهوى الرباب ويأبي الـ

ـهر حتى الممات ينسى الربابا

ضربت دونىَ الحجاب وقالت فى خفاءٍ فما عييتُ جواباً

قد تنكّرت للصديق وأظهرْ ت لنا اليوم هجرةً واجتنابا

قلت لا بل عَداكِ واشٍ فاصبحـ ـت نَوَاراً ما تقبلين عتابا (١)

فقضى حوائجها وانصرفت بما أرادت منه . فلما خلا الوليد بأم البنين قال لها : لله دَرُّ الثريا ! أتدرين ما أرادت بانشادها ما أنشدتنى من شعر عمر ؟ قالت : لا . قال : إني لما عرّضت لها به عرّضت لى بأن أمى أعرابية (٢)

* * *

شعر عمر فى الثريا

قال عمر فى الثريا طائفة من القصائد مرّ بعضها فى هذا الحديث

(١) النوار : المرآة النفور من الريبة . والجمع نور بالضم والاصل نور بضمتين فكرهوا الضمة على الواو فسكنوها (٢) الأعراب سكان البادية ، وفيهم خشونة يعابون بها قال شاعرهم :

وإنى لأهدى بالأوانس كالدمى وإنى باطراف القنا لأعوب

وإنى على ما كان من عنجهيتى ولوثة اعرابيتى لأديب

ومرت مختارات منها فى المحاضرة الأولى والثالثة ، فلنضف إليها هذه البائية :

شاق قلبي تذكر الأحباب ... واعترتنى نوائب الأطراب

يا خليلىّ فاعلما ان قلبي ... مُستهامٌ بربة المحراب [1]

علِقَ القلبُ من قريش ثقالاً ... ذات دلّ نقيـة الأثواب

ربةٌ للنساء فى بيت مَلْك ... جدُّها حلّ ذروة الاحساب

شفّ عنها محقَّقٌ جَندِيٌّ ... فهى كالشمس من خلال السحاب [2]

فتراءت حتى إذا جنّ قلبي ... سترتها ولائذٌ بالثياب

قلت لما ضربن بالستر دونى ... ليس هـذا لعاشق بثواب

فأجابت من القطين فتاة ... ذات دلّ رقيقة بعتاب

أرسلى نحوه الوليدة تسعى ... قد فعلنا رضا أبى الخطاب

(١) المحراب : الغرفة وصدر البيت وأكرم مواضعه . وهو بالطبع غير المحراب بمعنى المسجد في قوله من كلمة ثانية :

دمية عند راهب ذى اجتهاد ... صوروها في جانب المحراب

(٢) محقق : ثوب عليه وشى على صورة الحقق، كما يقال : ثوب مرجل عليه تصاوير رجل . وفي الاساس : ثوب محقق النسج محكمه . والجندى نسبة الى الجند وهو أحد مخاليف اليمن

افعلى بالأسير إحدى ثلاثٍ فافهمينّ ثم ردّى جوابى
اقتليه قتلاً سريحاً مُريحاً لا تكوني عليه سوط عذاب[1]
أو أقيدى فانما النفس بالنف س قضاءٌ مفصلا فى الكتاب[2]
أو صِليه وصلاً يقرّ عليهِ ان شر الوصال وصل الكِذَاب

وهذه اللامية :

ياخليلىّ سائِلا الأطلالا بالبُلَيَّيْن إن أَجزن سؤالا
وسفاهٌ لولا الصبابةُ حَبْسى فى رسوم الديار ركباً عِجالا
بعدما أوحشت من آل الثريا وأجدَّت فيها النعاج الظّلالا
يفرح القلب إن رآك وتستعـــبر عينى إذا أردت احتمالا

وقد مر باقى هذه القصيدة البديعة فى المحاضرة الثالثة عند الكلام تلطفه فى مخاطبة الغوانى وتوددِه اليهن بحسن الحديث

* * *

(١) سريح : أى سريع (٢) أقيدى : انتقمى ، من القود بالتحريك وهو القصاص وتقول : استقدت الامام من القاتل فاقادنى منه

عناية الثريا على ثنايا عمر

زار عمر الثريا يوما ومعه صديق له كان يصاحبه ، ويتوصل بذكره في الشعر ، فلما كشفت الثريا الستر وأرادت الخروج اليه رأت صاحبه فرجعت . فقال لها : انه ليس ممن أحتشمه ، ولا أخفى عنه شيئا واستلقى فضحك . فخرجت اليه فضربته بظاهر كفها ، وكان للنساء اذ ذاك يتختّمن في أصابعهن العشر ، فأصابت الخواتيم ثنيّتيه العُلْيين فنَغَضَتا وكادتا تسقطان ، فقدم البصرة فعُولج حتى ابيضتا واسودتا ، فقال الحزين الكناني [٣] يعيّره بذلك

مابال سِنيك أم مابالُ كسرهما
أهكذا كُسِرا في غير ما باسِ
أم نفحةٌ من فتاةٍ كنت تألفها
أم نالها وسْط شَرْب صَدْمة الكاس

ولقيه الحزين يوماً فأنشده هذين البيتين ، فقال له عمر : إذهب ،

(٣) هو عمرو بن عبيد الله بن وهيب بن مالك ويكنى أبا الشعثاء . من شعراء الدولة الاموية ، حجازي مطبوع وليس من فحول طبقته ، وكان هجاء خبيث اللسان . ومن شعره

اذا لم يكن المرء فضل يزينه ... سوى ماله حتى يموت فليس له فضل
ويلقى التقى صحما جميلا رواؤه ... يروعك في نادى وليس له عقل
وآخر تنبو العين عنه مهذب ... يجود اذا ما الضخم نهنهه البخل

اذهب ، ويلك : فانك لاتحسن أن تقول :

ليت هنداً أنجزتنا ما تَعِد ... وشفت أنفسنا مما تجد

واستبدت مرةً واحدةً ... إنما العاجز من لا يستبد

* * *

بكاء الثريا

لما ماتت الثريا طلب الفرزدق من بعض الشعراء أن يقول أبياتاً يندبها عليها فقال :

ألا ياعين مالك تدمعينا ... أمن رمد بكيت فتُكحلينا

أم انت حزينة فتبكين شجواً ... فشجوك مثله أبكى العيونا

وكانت والله أهلاً لأن تبكى بغير هذا الشعر الضعيف ، لو عرف معاصروها المهم يوم دفنوها إنما غيّبوا الثريا في التراب !